السنن الإلهيّة ومبحث الحجّيّة الاستدلاليّة

الدكتور بُوعُبَيد الازدهار[1]

ملخّص:

تتناول هذه المقالة موضوع السنن الإلهيّة ضمن مبحثين اثنين؛ هما:

- **الأوّل:** الآيات السننيّة بين قطعيّة الدلالة وقطعيّة الثبوت: يمكن مقاربة حجّيّة السنن الإلهيّة من جهتين؛ أولاهما: تتعلّق بجانب الثبوت، حيث تستمدّ هذه السنن ثبوتها من ثبوت القرآن الكريم وتواتره، وثانيهما: تتعلّق بجانب الدلالة. وتنقسم آيات القرآن الكريم من حيث الدلالة إلى: آيات قطعيّة، وآيات ظنّيّة. وآيات السنن من الآيات قطعيّة الدلالة.

- **الثاني:** آيات السنن الإلهيّة والحجّيّة الاستدلاليّة: فتكرار السنن واطّرادها وجريانها على جميع الخلق، ينبّه العقل البشريّ في مناسبات كثيرة إلى أهمّيّة فقهها وتسخيرها من أجل استئناف الفعل الحضاريّ. وتعرض المقالة نماذج تفسيريّة توحي بمركزيّة هذه القواعد السننيّة وإعمالها في سياق المحاججة؛ نفيًا للباطل، وإثباتًا للحقّ.

كلمات مفتاحيّة:

السنن الإلهيّة، الحجّيّة الاستدلاليّة، الثبوت، الدلالة، القطع.

(1) أستاذ وباحث في الفكر الإسلاميّ، جامعة السلطان مولاي سليمان، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، بني ملال - المغرب.

مقدّمة:

الثبات والاطّراد؛ من الخصائص التي تتّصف بها آيات السنن الإلهيّة؛ فلولا اطّرادها لما أمر الحقّ -تعالى- عباده المؤمنين في محكم التنزيل بالسير في الأرض والنظر في عواقب الحوادث والوقائع الماضية، ولما أرشد الإنسان إلى التفكّر في المشاهد والحقائق الكونيّة؛ فمن خلال السير وتتبّع فاعليّة السنن ونفاذها في الأفراد والجماعات والكون المادّيّ تحصل العظة والاعتبار بما حلّ بالأوّلين من العقاب والجزاء، لتتجنّب العقول الفطنة تكرار أخطائهم، وتجنح عن مسالكهم، كلّ حسب مقدار علمه بهذه المواطن وتسخيره لها.

ومن المقدَّر شرعًا أنّ الآيات الشرعيّة والآيات الكونيّة تخرجان من مشكاة واحدة ومن مصدر واحد؛ وهو كتاب الله تعالى؛ أي أنّهما جزء لا يتجزّأ من القرآن الكريم.

وما دام هذا القرآن هو كتاب الله الخاتم الذي عُني بالحفظ والرعاية الإلهيّة في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1]، فإنّه حجّة بإجماع الخاصّة والعامّة من المسلمين، ومصدر من مصادر الاستدلال به في الجوانب التشريعيّة؛ وكذا الحقائق الكونيّة الكبرى الدالّة على الخالق وقدرته في تسيير خلقه، إذ منه تستمدّ الأحكام وفي ظلاله تُنظَّم أحوال الخلق في دنياهم وأخراهم؛ لأنّه سبيل الهداية ومنهج الرشاد، وقد جعله الله -تعالى- آية على صدق رسوله ﷺ في رسالته الخاتمة، فهو معجزة خالدة ودائمة بدوام حياة البشريّة، و«لزوم الحجّة به باقٍ من أوّل ورودها، إلى يوم القيامة»[2]. ولمّا كان الأمر كذلك، فإنّ سنن الله -تعالى- هي حجّة -أيضًا- باقية ببقاء الإنسانيّة ودوام حركتها على وجه الأرض.

---

(1) سورة الحجر، الآية 9.

(2) ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، تونس، الدار التونسية للنشر، 1984م، المقدمة العاشرة في إعجاز القرآن، ج1، ص102.

أولًا: الآيات السننيّة بين قطعيّة الدلالة وقطعيّة الثبوت:

يمكن تناول حجّيّة السنن الإلهيّة في هذا الباب من جهتين؛ أولاهما: تتعلّق بجانب الثبوت، وثانيهما: تتعلّق بجانب الدلالة، وفي ما يلي بيان لهاتين الجهتين:

1. **من جهة الثبوت:** من المقدّر في الشرع أنّ القرآن كلّه قطعيّ الثبوت، حيث نُقل بالتواتر جيلًا عن جيل، من حيث التحمّل والأداء، محفوظًا ومصانًا عن التحريف بحفظ إلهيّ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1]. وحيث إنّ السنن الإلهية المقصودة في هذا البحث، مذكورة في القرآن الكريم، ومُستمدة من آياته، فلا غرو أنْ تكون قطعيّة الثبوت محفوظة المتن؛ شأنها شأن سائر القرآن الكريم؛ فحجّيّتها ثابتة لا ريب فيها.
2. **من جهة الدلالة:** تنقسم آيات القرآن الكريم من حيث الدلالة إلى: آيات قطعيّة، وآيات ظنّيّة، فأمّا القطعيّة: فهي الآيات التي لا تحتمل ألفاظها غير معانيها، فضلًا عن تكرار هذه المعاني والإلحاح عليها من خلال طرق إثبات يقينيّة الدلالة؛ كالاستقراء التامّ[2]، والتواتر المعنويّ[3]. وأمّا الظنّيّة فهي الآيات التي تحتمل ألفاظها غير معانيها»[4]. فتتعدّد الفهوم بتعدّد الدلالات، وتكون حينها دلالة هذه الألفاظ ظنّيّة، تقبل التأويل والتفسير.

وبناءً على ما سبق، فإنّ الناظر في آيات السنن يجد أنّها قطعيّة الثبوت، تندرج في القسم الأوّل؛ وذلك لأنّها جزء من آيات القرآن الكريم الذي ثبت

(1) سورة الحجر، الآية 9.

(2) الاستقراء التامّ: وهو الحكم على كلّيّ لوجوده في جميع جزئيّاته. (انظر: الرازي، قطب الدين: تحرير القواعد المنطقية، ص160؛ النشار، سامي: مناهج البحث عند مفكري الإسلام، ص71).

(3) التواتر المعنويّ: وهو أنْ ينقل جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب، وقائع مختلفة تشترك في أمر، يتواتر ذلك القدر المشترك، كما إذا نقل عن حاتم مثلًا؛ أنه أعطى جملًا، وآخر أنّه أعطى فرسًا، وآخر أنّه أعطى دينارًا، وهلمّ جرّا، فيتواتر القدر المشترك بين أخبارهم، وهو الإعطاء؛ لأنّ وجوده مشترك بين جميع هذه القضايا (انظر: السيوطي: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، ج2، ص180).

(4) عاشور، مجدي: السنن الإلهيّة في الأمم والأفراد في القرآن الكريم- أصول وضوابط، تقديم: علي محمد جمعة، ط2، بيروت، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1428هـ-ق/ 2007م ص49-50.

كلّه ثبوتًا قطعيًّا، أمّا دلالتها من حيث كونها حجّة يعتمد عليها ويستدلّ بها، فإنّها -أيضًا- قطعيّة الدلالة على المراد منها؛ لأنّها لو لم تكنْ كذلك لما كانت مطّردة سارية على الجميع[1]؛ وذلك لكثرة تكرّرها والتأكيد عليها وعلى مدلولاتها، والأمر في خواتيمها بالاعتبار والاتعاظ؛ سواء ما كان منها يتحدّث عن السنن في الجملة، تصريحًا بلفظ «**السنّة**»؛ كما في قوله -تعالى-: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ﴾[2]، وقوله: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [3]، أو ما كان يتحدّث فيها عن السنن على وجه التفصيل؛ كما في سنّة التعدّديّة الدينيّة، فقد اقتضت حكمة الله -تعالى- أنْ تكون تلك التعدّديّة والاختلاف العقديّ «سنّة إلهيّة ماضية حاكمة؛ كما في قول الله -تعالى-: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[4]، وسياق الآية يفيد بالقطع الثبوتيّ والدلاليّ؛ بقاء تلك التعدّديّة واستمرارها ودوامها، مشيئة إلهيّة لا تبديل لها ولا تحويل، وتلكم هي أساس موقف الإسلام من عقيدة الآخر ومنهجه في أساس الاعتقاد» [5]، وكذا سنّة التداول، والتغيير، وغيرهما سنن كثيرة.

ومن ثمّ كان الاستدلال بالسنن الإلهيّة قطعيّ الدلالة؛ ما يؤدّي إلى «قطعيّة الاعتبار، ووجوب الأخذ بالحيطة والحذر؛ بما اشتملت عليه السنن المنذرة، وضرورة التلبّث بما اشتملت عليه السنن المبشِّرة»[6]؛ فلو لم تكنْ آيات السنن قطعيّة الدلالة؛ لما أمر الله -تعالى- بالسير في الأرض والنظر في من جرت عليهم سننه من الأمم والحضارات؛ كقوله: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن

(1) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى: زكي، رمضان خميس: مفهوم السنن الربّانية - دراسة في ضوء القرآن الكريم، سلسلة هذا هو الإسلام (7)، تقديم: محمد عمارة، ط1، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، 1427هـ/ يناير 2006م، ص52-55.

(2) سورة الأحزاب، الآية 38.

(3) سورة غافر، الآية 85.

(4) سورة البقرة، الآية 256.

(5) المخزنجي، أحمد: «الحضارة الإسلاميّة وسطيّتها وموقفها من الآخر»، سلسلة دعوة الحقّ، رابطة العالم الإسلاميّ، السنة 23، العدد (224) - 1429هـ/ 2008م، ص111-112 (بتصرّف).

(6) عاشور، السنن الإلهيّة في الأمم والأفراد في القرآن الكريم - أصول وضوابط، م.س، ص49-50.

قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[1]، وما دامت سنن الله مطَّردة ترتبط مقدّماتها بنتائجها ارتباطًا عضويًّا، شاملة للمخلوقات والظواهر الكونيّة كافّة من الذرّة إلى المجرّة، ومن حياة الأفراد إلى حياة الأمم والمجتمعات.. إلى نشأة الحضارات واندثارها، فهي تتّسم »بالنظام والانتظام، فكلّ حركة حضاريّة، مهما بدت جزئيّة أو صغيرة، محكومة بسنن فاعلة وقاضية، لا يقع فيها النسخ إبدالًا أو تحويلًا؛ لقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[2]»[3].

ولمّا كانت آيات السنن من قبيل «الأفعال والأخبار، لم يدخلها النسخ الذي يشمله معنى التبديل؛ كما هو الحال في الأحكام الجزئيّة التكليفيّة. فقد تواردت الآيات البيّنات لتؤكّد أنّ ما قضاه الله وسنَّه وأبرمه لا يعتريه تبديل من الله، فضلًا عن أنْ يقدر أحد على تغييره»[4]؛ كما قال -تعالى-: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾[5]، إذ إنّ «السنّة الإلهيّة لا تقبل النقض، سواء أكانت في الميدان المادّيّ، أم كانت في ميدان الاجتماع البشريّ، بيد أنّ المعوّل عليه أنْ نتأكّد أنّها سنّة إلهيّة على سبيل القطع؛ وذلك أنْ ترد في نصّ قطعيّ الورود، قطعي الدلالة، أمّا إذا وردت بغير هذا الطريق، فإنّها تحتاج إلى بحث واستدلال حتّى يثبت أنّها سنّة»[6]. فبثبات القانون الإلهيّ وعدم تغيّره، تَثبت النفس البشريّة وتطمئن ويحيطها الاستقرار، الذي يكون توطئة لمعرفة ما لكلّ امرئ وما عليه، فيَتعبرُ المبصر ويُحذَّر المخطئ، ويتحسّس كلّ إنسان أين تسير به قدماه، ويحجم أو يقدم لمصيره ومآله في دنياه وأخراه.

(1) سورة آل عمران، الآية 137.
(2) سورة الفتح، الآية 23.
(3) الخطيب، محمد عبد الفتاح: القيم الحضاريّة للإسلام- نحو حداثة إنسانيّة جديدة، ط1، القاهرة، دار البصائر، 1432هـ.ق/ 2011م ص313.
(4) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، للطاهر ابن عاشور، م.س، ج8، ص21 (بتصرّف يسير).
(5) سورة الأنعام، الآية 115.
(6) يوسف، يوسف إبراهيم: السنن الإلهيّة في الميدان الاقتصاديّ، جامعة قطر، لا ت، ص214.

ثانيًا: آيات السنن الإلهيّة والحجّيّة الاستدلاليّة:

«حقيقة الاستدلال بسنّته وعادته هو اعتبار الشيء بنظيره، وهو التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين، وهو الاعتبار المأمور به في القرآن؛ كقوله -تعالى-: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾»[1]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[2]؛ وإنّما تكون العبرة بالقياس والتمثيل، فإذا عرفت قصص الأنبياء عليهم السلام ومن اتّبعهم ومن كَذّبهم، وأنّ متّبعيهم كان لهم النجاة والعاقبة والنصر والسعادة، ولمكذّبيهم الهلاك والبوار، جعل الأمر في المستقبل مثلما كان في الماضي، فعلم أنّ من صدّقهم كان سعيدًا، ومن كذّبهم كان شقيًّا، وهذه سنّة الله وعادته، ولهذا يقول الله في تحقيق عادته وسننه وأنّه لا ينقضها ولا يبدّلها: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾[3]، »فإذا لم يكونوا خيرًا منهم فكيف ينجون من العذاب مع مماثلتهم لهم؟ هذا بطريق الاعتبار والقياس»[4]. فـ«الاستدلال بسنّته -تعالى- وعادته، طريق برهانيّ ظاهر لجميع الخلق، وهم متّفقون عليه»[5].

والسنن الجارية حجّة على جميع الخلق، إذ الكلّ مطالب بفهم حركة هذه السنن واكتشاف فاعليّتها وتسخيرها، لذلك فالله -تعالى- أرشد الناس جميعًا في كثير من مواضع القرآن الكريم إلى تتبّع هذه السنن وفهمها واستثمارها في الفعل الحضاريّ، وجعلها بيانًا لهم؛ بقوله -تعالى-: ﴿هَٰذَا

(1) سورة آل عمران، الآية 13.
(2) سورة الحشر، الآية 2.
(3) سورة القمر، الآية 43.
(4) ابن تيمية، أحمد: كتاب النبوّات، راجعه وأشرف على تحقيقه: أبي عبد الله مصطفى بن العدوي، تحقيق: الشحات أحمد الطحان، مصر- المنصورة، مكتبة فيّاض للتجارة والتوزيع، لا ت، ص346.
(5) م.ن، ص343.

بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾[1]، وهو «إرشاد عامّ إلى أنّ جريان الأمور على السنن المطّردة حجّة على جميع الناس؛ مؤمنهم وكافرهم، تقيِّهم وفاجرهم»[2].

ويستوي في هذه الحجّيّة؛ آيات السنن الكونيّة؛ كما آيات السنن الشرعيّة، على اعتبار أنّهما خرجتا من مشكاة حجّيّة واحـدة، حيث مصدرهما واحد؛ وهو القرآن الكريم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[3]. وقد يسبق النظر إلى «أنّ السنن الكونيّة لخضوعها للتجربة والفحص المعمليّ تستأثر بالبرهان القطعيّ دون السنن الشرعيّة، والحقيقة غير ذلك، أنّ القرآن الكريم يضعنا في معرض الحديث عن الحقائق الكونيّة ووحدة الخالق، أمام مسألة مهمّة؛ وهي أنّ هناك اتّحادًا بين السنن الإلهيّة بأنواعها في الاحتجاج، بدلالة اقترانهما في القرآن في مواطن عديدة عند الاحتجاج بهما في وحدة الحقّ وحكمة الباري جلّ وعلا»[4].

ومن تلكم الآيات التي وقع فيها الاقتران بين السنن الشرعيّة والسنن الكونيّة، قول الحقّ -تعالى-: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[5]، فالمناسبة بين نصر الله مَنْ بُغِي عليه فصبر، وبين إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل؛ هي الايماء إلى سنّة تقلّب أحوال الزمان وتداوله، فقد يصير المغلوب غالبًا، والغالب مغلوبًا. ولا عجب، فـ«إنّ القادر على تغليب النهار على الليل حينًا، بعد أنْ كان أمرهما على العكس حينًا آخر، قادر على تغليب الضعيف على القويّ»[6].

(1) سورة آل عمران، الآية 138.
(2) رضا، محمد رشيد: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1990م، ج4، ص143.
(3) سورة فصلت، الآية 42.
(4) عاشور، السنن الإلهيّة في الأمم والأفراد في القرآن الكريم - أصول وضوابط، م.س، ص51 (بتصرّف).
(5) سورة الحج، الآيتان 60-61.
(6) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، م.س، ج17، ص315.

وهذا يؤكّد أنّ الله -تعالى- قادر على تحقيق وعده بالنصر لمن يُعاقب بمثل ما عُوقب به؛ لأنّ سنّة الله اقتضت أنْ تكون الغلبة للحقّ مهما علا الباطل وارتفع، فكما أنّه -تعالى- قادر على إيلاج الليل بالنهار؛ فكيف يعجزه أن يدافع عن العبد المغلوب ويرجِّح قضيّته على الغالب. ويستشف من هذا أنّ الله -تعالى- قرن سنّته الكونيّة (ظاهرة الإيلاج بين الليل والنهار) المشاهدة المكرّرة؛ بفعله على تحقيق الوعد بالانتصار للمظلوم؛ وهو ما ترتّب عنه تأكيد الله[1] على تنفيذ عقوبة الهلاك والاستئصال للظالم؛ إنْ هو استمرّ في ظلمه وغيِّه، فالأمر واقع به لا محالة؛ كما يقع الإيلاج بين الليل والنهار، وفي هذا الصدد يقول سيد قطب: «السياق يوجّه النظر إلى تلك الظاهرة الكونيّة المكرّرة حتّى لا يمرّ الناس عليها غافلين، ليفتح بصائرهم ومشاعرهم على يد القدرة؛ وهي تطوي النهار من جانب وتسدل الليل من جانب، وهي تطوي الليل من جانب وتنشر النهار من جانب في دقّة عجيبة لا تختلّ، وفي اطّراد عجيب لا يتخلّف، وكذلك نصر الله لمنْ يقع عليه البغي؛ وهو يدفع عن نفسه العدوان، إنّه سنّة مطّردة؛ كسنّة إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، فكذلك يَزْوِي (يُنحي ويقبض) الله سلطان المتجبّرين وينشر سلطان العادلين، فهي سنّة كونيّة، تلك السنّة يمرّ عليها الناس غافلين؛ كما يمرّون على دلائل القدرة في صفحة الكون؛ وهم لا يشعرون» [2].

وفي سياق مقارعة الله -تعالى- للكافرين بعدم الاعتبار من آثار الأمم الخالية، يقول -سبحانه جل وعلا- في أنموذج ثانٍ، يجسّد علاقة الاقتران بين السنن الشرعيّة (الدينيّة) والسنن الكونيّة: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٣ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٢٥ أَوَ لَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ

(1) المستفادة من لام التأكيد في لفظة «لَيَنصُرَنَّهُ».

(2) سيّد قطب، إبراهيم: في ظلال القرآن، ط17، بيروت؛ القاهرة، دار الشروق، 1412هـ، ج4، ص2439.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾[1].

ومعنى هذه الآية؛ كما يقول سيّد قطب: «أنّ القرآن (الكريم) يستنكر على هؤلاء أنْ تكون مصارع هذه القرون معروضة لهم وأنْ تكون مساكن القوم أمامهم، يمرّون عليها ويمشون فيها، ثمّ لا يستجيش هذا قلوبهم، ولا يهزّ مشاعرهم، ولا يستثير حسّاسيّتهم بخشية الله، وتوقّي مثل هذا المصير، ولا يهدي لهم ويبصرهم بالتصرّف المنجي من استحقاق كلمة الله بالأخذ والتدمير»[2]. فالله -تعالى- عندما ينبّه هؤلاء القوم إلى ضرورة أخذ العبرة والاتّعاظ بما حلّ بالأمم الخالية من عذاب وعقاب؛ وفق سنّة الله في القوم الكافرين، إنّما يريد منهم تحصيل الوقاية وتجنّب أخطاء الأوّلين حتّى لا يقع لهم مثل ما وقع للسابقين، ومن هنا، تأتي ضرورة النظر والتبصّر في أحوال مَنْ مضى من الأجيال السابقة، والتعرّف على الأسباب المؤدّية إلى ذلك وتجنّبه، فعلى «قدر علمنا بقوانين الله وسننه يكون ظننا حقيقيًّا، ولهذا أمرنا الله أنْ ننظر في هذا الكون، وأنْ نسير في الأرض؛ لنعرف ماذا في السموات والأرض، ولنعرف تاريخ الإنسان وعاقبة الأمور»[3].

وحتّى يتحقّق مقصود الشارع من السير في الأرض ويتعرّف الإنسان على آثار السابقين، وأسباب هلاكهم والاتّعاظ بها، فقد عرض القرآن الكريم الكثير من الآثار والمواقف التي يشاهدها الناس عيانًا؛ كما حال الآية السابقة. وفي هذا السياق نجد أنّه من لطائف المناسبة في الآيتين الأخيرتين أنّ «الأولى تكلّمت عن سنّة إلهيّة اجتماعيّة تاريخيّة، تُعلم عن طريق النقل والسماع، فخُتمت بقوله: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾، في حين أنّ

(1) سورة السجدة، الآيات 23-27.

(2) سيّد قطب، في ظلال القرآن، م.س، ج5، ص2815؛ وانظر: ابن كثير، إسماعيل: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط2، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1420هـ-ق/ 1999م، ج6، ص372.

(3) سعيد، جودت: مفهوم التغيير، (سلسلة مجالس بير عجم)، ط1، بيروت، دار الفكر المعاصر، 2001م، ص248.

الثانية تكلّمت عن سنّة كونيّة لا دخل لعمل الإنسان فيها، وطريق معرفتها المشاهدة، فخُتمت بقوله: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾، ودلالة الاقتران تفيد أنّه لا ينبغي التفرقة بين ما يُسمع وما يُشاهد؛ طالما أنّ مصدر الإخبار بهما واحد؛ وهو الوحي، وهكذا يكون اعتقاد المؤمن حيال آيات الله الكونيّة وغيرها من آيات السنن المتعلّقة بالبشر»[1]؛ ما يعني أنّ الله -تعالى- قَرَنَ الآيات الشرعيّة بالآيات الكونيّة في كثير من المواضع على سبيل الاستدلال؛ ليزداد الإنسان يقينًا بفاعليّة سنن الله في الاجتماع البشريّ ونفاذها؛ لعلّ ذلك يقوّي همّته في أنْ يعترف بقدرة الله وعظمته في هذا الوجود ويدفع بها إلى الاعتقاد السليم واتّباع رسله الكرام المبعوثين.

وإذا رجعنا إلى سورة الأنبياء - في أنموذج ثالث - نجد أنّ بعض آياتها تعنى بهذا الربط بين مظاهر الكون الواضحة للعيان، وبين النظام الإلهيّ في سلوك البشر وأفعالهم، يقول الحقّ -تعالى-: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣١ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًاۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٣ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [2].

يتبيّن من خلال استقراء هذه الشريحة من الآيات البيّنات، أنّها تجمع بين عدد من مظاهر الكون وقوانينه؛ من كون السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقهما الله تعالى، ووجود الرواسي التي تمنع الأرض من الميلان بالناس، وجعل السماء سقفًا محفوظًا، وكذا جعل الكلّ يَسبح في فلك خاصّ لا يتعدّاه ولا يتحدّاه، ثمّ خلق الليل والنهار، والشمس والقمر، وغيرها من مفردات هذا الكون الفسيح. وبَعد رصد الآيات الكريمة لجانب من جوانب السنن الكونيّة، ينتقل بنا القرآن الكريم إلى رصد جانب آخر مكمّل من

(1) عاشور، السنن الإلهيّة في الأمم والأفراد في القرآن الكريم- أصول وضوابط، م.س، ص54.
(2) سورة الأنبياء، الآيات 30-35.

جوانب السنن الإلهيّة المتعلّقة بالبشر، والمتمثّلة في سنّة عدم التخليد للبشر، وسنّة الأجل لكلّ نفس، وكذا سنّة الابتلاء بالخير والشرّ.

وهي المواضع التي تكشف لنا عن وجه الترابط الحاصل بين قوانين الكون وقوانين البشر، وليس ذلك عبثًا ولا سدى؛ وإنّما هو تقدير من العزيز العليم، ولا شكّ أنّ من ورائه حِكَمًا وأسرارًا، ولعلّ جانبًا منها متعلّق بقوّة وحجّيّة استدلاليّة تجعل الإنسان ينصرف من الإعراض والاستكبار إلى الإقبال والاقتناع والاهتداء؛ بما جاءت به رسالة الإسلام من تشريعات، وما دلّت عليه من حقائق علميّة كونيّة، ثمّ إنّ النفس البشريّة بطبيعتها لا تحصل لها العظة والاعتبار بالشكل السليم؛ إلا من خلال العلامات المحسوسة التي تشهدها بشكل متكرّر، ولذلك فالإنسان عندما يتأمّل حقيقة خلق السموات والأرض بغير عمد، وأنّه ما من نفس إلا ومصيرها الفناء، وهذه حقائق يعقلها الأمّيّ والجاهل، لا تحتاج إلى كثير من استقراء أو استنباط؛ وإنّما تتحصّل بالمشاهدة والملاحظة المتكرّرة.

ومن ثمّ كان المقصود من دلالة الاقتران في تلكم الآيات؛ «إيقاظ العقول إلى الاستدلال بما في خلق السموات والأرض، وما بينهما من دقائق المناسبات، وإعطاء كلّ مخلوق ما به قوامه. فإذا كانت تلك سنّة الله في خلق العوالم ظرفها ومظروفها، استدلّ بذلك على أنّ تلك السنّة لا تتخلّف في ترتيب المسبّبات على أسبابها في ما يأتيه جنس المكلّفين من الأعمال»[1].

ومن هنا، فَهم العقلاء هذه الحجّيّة، فاستدلّوا بها وأقاموا من خلالها الحجّة والدليل على أقوامهم؛ وقد أخبر الله -تعالى- بنماذج من هؤلاء الذين استدلّوا بسنن الله في خلقه على عاقبة مَنْ يخالف أوامر الله ويتحدّى رسله في جانب النذارة، وعلى حسن عاقبة الصالحين في الدنيا والآخرة، في جانب البشارة؛ كما الحال في مؤمن آل فرعون، إذ يقول لقومه

(1) عاشور، السنن الإلهيّة في الأمم والأفراد في القرآن الكريم- أصول وضوابط، م.س، ص52.

ساحبًا حكم من سبق عليهم لتحقّقهم بصفاتهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾[1]، ومعنى دأب قوم نوح وعاد وثمود أي: «مثل عادتهم في الكفر والتكذيب وعادة الله فيهم بالعقوبة العاجلة في الدنيا قبل الآخرة»[2].

والذي يتأمّل هذه الآيات يجد كيف أنّ مؤمن آل فرعون استدلّ بالسنن التي مضت في الأمم السابقة؛ لينبّه قومه إلى ما حلّ بهم من العذاب؛ بسبب كفرهم وعنادهم وتكذيبهم لرسلهم. فكان هذا النصح تذكيرًا لهم حتّى لا يقع عليهم العذاب والعقاب؛ كما حصل مع مَنْ سبقهم من الأقوام الكافرة. «وهذا يقتضي أنّ القبط كانوا على علم بما حلّ بقوم نوح وعاد وثمود، فأمّا قوم نوح فكان طوفانهم مشهورًا، وأمّا عاد وثمود فلقرب بلادهم من البلاد المصريّة؛ وكان عظيمًا لا يخفى على مجاوريهم»[3]. وهي أسباب كافية ليحلّ بهم الدمار والبوار؛ كما أخبر بذلك القرآن الكريم، وهذا يعني أنّ هذا المؤمن فَهِمَ قوانين الله -تعالى- وسننه العاملة في خلقه، وسخّرها في رسالته الحضاريّة التغييريّة لما كان سائدًا حينئذ من مظاهر الكفر والشرك، وقد أتت عبارته في هذا السياق دقيقة في التعبير والبيان عن مقصوده: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ [4]، ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[5]، وباستحضار مؤمن آل فرعون لهذه القواعد السننيّة استطاع أنْ يحقّق سبقًا ويحرز نصرًا، ويصل إلى هدفه ومبتغاه في إرشاد القوم إلى العدول عن كفرهم والتصديق بما جاء به موسى واتّباع دعوته.

(1) سورة غافر، الآيتان 30-31.
(2) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط1، مؤسّسة الرسالة، 1420هـ.ق/ 2000م ص736.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير م.س، ج24، ص135.
(4) سورة غافر، الآية 34.
(5) سورة غافر، الآية 40.

وإذا انتقلنا إلى سورة النمل وجدنا تلك الآيات التي تتحدّث عن قانون الله في المكر والماكرين في رصدها لقصة نبي الله صالح عليه السلام، وكيف أنّه استدلّ بسنن الله في الأقوام السابقة المكذِّبة؛ ليثني قومه ثمود عن كفرهم، ويحدّ من جرأتهم على حرمات خالقهم، ويعقّب القرآن الكريم بقوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥١ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾[1]، يخبرنا الله -تعالى- في هذه الآية أنّ قوم ثمود لمّا دبّروا المكيدةَ لقتل صالح عليه السلام وتصفيته، أنزل الله سنّته الكونيّة بتعجيل العقوبة والهلاك جزاءً لهم على مكرهم وجرأتهم في قتل أنبياء الله. قال الإمام الشوكاني في تفسير هذه الآية: «أي جازيناهم بفعلهم فأهلكناهم وهم لا يشعرون بمكر الله بهم.. فانظر ما انتهى إليه أمرهم الذي بنوه على المكر، وما أصابهم بسببه أنْ دمّرناهم وقومهم أجمعين»[2].

وقد دلّت الآية على أنّ سنّة الله -تعالى- في المكر والماكرين نافذة في القوم المكذِّبين الظالمين الذين كذَّبوا الرسل وانحرفوا عن الحقّ الذي جاءهم من ربّ العالمين، وآذوا رسل الله؛ وهم قد جاءوهم بالبيّنات؛ إرشادًا وهدايةً لهم إلى الطريق المستقيم، وفي المقابل فإنّهم أعرضوا عن الحقّ واتّبعوا الباطل والكفر وأهله، وهذه سنّة من سنن الله في خلقه، فما من نبي أو رسول؛ إلا وقد تعرّض للإذى والتكذيب من قِبَل قومه، ولذلك جاء تذكير نبي الله صالح عليه السلام قومه؛ بما تعرّضت له الأمم السابقة المكذِّبة من الهلاك؛ نتيجة التكذيب والكفر والمكر لأنبيائهم عليهم السلام. فـ«سنّة الله في المكر السيّئ أنّه لا ينزل إلا بأهله، متّى تحقّقت شروطه، وانتفت موانعه؛ حلّ وقت نفاذه»[3].

(1) سورة النمل، الآيات 50-53.

(2) الشوكاني، محمد: فتح القدير، ج4، ص166؛ وانظر: القرطبي، محمد: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني؛ إبراهيم أطفيش، ط2، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1384هـ/ 1964م، ج13، ص217.

(3) زيدان، عبد الكريم: السنن الإلهيّة في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلاميّة، ط3، بيروت، مؤسّسة الرسالة، 1423هـ/ 2002م، ص246.

خاتمة:

نخلص ممّا تقدّم، أنّ القرآن الكريم اعتنى بالسنن الإلهيّة عناية بالغة، وجعلها حجّة قاطعة ثبوتًا واستدلالًا؛ إذ بتكرارها واطّرادها وجريانها على جميع الخلق، جعل الحقّ -تعالى- ينبّه العقل البشريّ في مناسبات كثيرة إلى أهمّيّة فقهها وتسخيرها من أجل استئناف الفعل الحضاريّ، وتلكم النماذج التفسيريّة التي تمّ استدعاؤها في متن هذه المقالة توحي بمركزيّة هذه القواعد السننيّة وإعمالها في سياق المحاججة؛ نفيًا للباطل، وإثباتًا للحقّ، فإذا كان هؤلاء الفاهمون المتعقّلون لسنن الله في الآفاق والأنفس من الأنبياء عليهم السلام والصالحين، قد صدعوا برأيهم وأظهروا فهمهم لهذه السنن واستدلّوا استدلالًا قاطعًا بها أمام أقوامهم وعملوا بها في مسيرتهم الحضاريّة، فهذا يظهر - بلا أدنى شك- مكانة هذه السنن وأهمّيّة تعقّلها في مجال الاجتماع البشريّ؛ كما في المجال الكونيّ الآفاقيّ. والأمّة الإسلاميّة إذا ما أرادت النصر والتمكين وسعت إليه سعيها، فلا بدّ لها من أنْ تفطن هذه السنن وتنادي بفهمها وتعمل بمقتضياتها؛ حتّى يعمّ النصر المؤمنين أجمعين؛ فتستعيد ريادتها، ويتحقّق وعد الله فيهم: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[1].

(1) سورة الروم، الآيتان 4-5.